

# رفرز ورأيه في الاحلام

بقلم الاستاذ حامد عبد القادر

أستاذ علم النفس بكلية أصول الدين

ولد وليم هالس رفرز ورفرز (١) في مارس سنة ١٨٦٤ من أسرة نبيلة ، اشتغل عدد كبير من أفرادها في وزارة البحرية الانجليزية ، وكان لهم صيت ذائع في هذه المهنة ، وربما كان هذا سبباً في ولع رفرز هذا بالضرب في الأرض ، وشغفه بالاطلاع على أحوال الشعوب المختلفة ، ودراسة طبائعهم وتقاليدهم المتنوعة .

نشأ رفرز نشأة علمية ، وتلقى دروسه الأولى في مدارس : برايتن ، وتينبرج ، وكبريدج من بلاد الانجليز ؛ وربما يدلنا على ذكائه وحسن استعداده للمعرفة أنه ألتي أول محاضرة وهو في الثانية عشرة من عمره ، وأنه حصل على درجة بكالوريوس في الطب من جامعة لندن وهو في الثانية والعشرين ، فكان بذلك أصغر من حصلوا على هذه الدرجة في المستشفى الذي انتسب إليه .

بعد ذلك بستين حصل على درجة أستاذ في الطب ، وفي السنوات التالية قام برحلات متعددة إلى أمريكا واليابان وغيرها ، وتولى وظائف طبية مختلفة برهن فيها على كفاءته وجدارته .

وفي سنة ١٨٩٣ سافر إلى ألمانيا ، وسمع محاضرات كثير من مشاهير أطبائها النفسيين ، ولا بد أنه قد تأثر بفزارة مادتهم ، وأعجب بمعارفهم ، ولا سيما في علم الطب النفساني ، لأنه بعد أن عاد إلى إنجلترا عقد العزم على أن يقضى أكبر جزءه يمكن من أوقاته في دراسة علم النفس النظري والتجريبي وعلاقته بالطب .

بعد ذلك أخذت شهرته في الازدياد ، حتى صار في وقت من الأوقات أستاذاً في ثلاث من دور العلم الكبرى هي : مستشفى جاي ، وجامعة لندن وكبريدج ، وإليه يرجع الفضل في إنشاء قسم لعلم النفس التجريبي بجامعة لندن ، ويعتبر أول قسم من نوعه أنشئ في إنجلترا . لم تزل معارف رفرز في الازدياد ونجمه في الصعود ، حتى صار عضواً في الجمعية الملكية (٢) وأصبح أحد الأفاضل الذين يعتبر كل منهم حجة في مادة كرم حياته للتوسع في بحثها ، بل إن الدكتور رفرز كان يفضل غيره من هؤلاء العلماء بفزارة معارفه في مواد عديدة ، منها :

[1] William Halse Rivers Rivers [2] Fellow of the Royal Society.

علم الطب ووظائف الأعضاء ، وعلم النفس بجميع فروعه ، وعلوم الاجتماع - ولا سيما علم الأجناس البشرية .

قامت الحرب العظمى ، واستطارت شررها ، وحى وطيسها ، وأصيب فيها من أصيب ، فأنشئت مستشفيات لمعالجة الجنود المصابين الذين ذهبت عقولهم في ساحات القتال ، فكانت معارف رفرز وتجاربه وأبحاثه في علم النفس وعلوم الاجتماع خير ما يجعل مثله أهلاً للاشتغال بهذه المستشفيات ، وهذا ما وقع بالفعل ، فقد منح الدكتور رفرز الوسام الملكي من الجمعية الملكية سنة ١٩١٥ تقديراً لأعماله ، ثم انتدب مع غيره للاشتغال بمستشفى الحرب الذي أقيم ببلدة ( مجهل Maghull ) على مقربة من ليفربول ، وفي سنة ١٩١٦ انتدب للاشتغال بالمستشفى الحربي بأدنبرا ، وفي سنة ١٩١٧ عين مستشاراً طبياً في الأحوال العقلية بوزارة الطيران الملكية البريطانية .

وتولى معالجة هؤلاء المرضى اتساح أمامه المجال لتتوسع في علم النفس الطبي ، وتوافرت لديه التجارب المتعددة للتحقق من مبادئ فرويد ، وقواعد علم النفس التحليلي ، ولمعرفة علاقة التطورات العقلية بالتطورات الخفية العصبية ، وقد أعدته هذه التجارب وتلك الأبحاث لأن يكون من أكبر علماء النفس لا في إنجلترا حسب ، ولكن في العالم كله ؛ ولا غرو فإن مؤلفاته المتعددة القيمة ، ومحاضراته التي ملأ بها بلاد الإنجليز ، وآراءه المنتشرة في بلون كتب علم النفس ، وتجاربه التي قام بها ووصفها وصفاً دقيقاً في المجلات العلمية ، كل هذه تشهد له بالفضل ، وعلو القدر .

وقد بلغ الدكتور رفرز قمة الشرف وغاية الجهد ، حينما اختاره حزب العمال البريطاني البرلماني لأن يكون عضواً في البرلمان ممثلاً للجامعة لندن ، وذلك سنة ١٩٢٢ ؛ ولكنه لم يلبث أن عاجلته منيته بعد ذلك ببضعة أشهر فتوفي مأسوفاً عليه ، فخزنت عليه الجمعية الملكية وأبنته أحد أعضائها الدكتور تشارلز ميرز بخطبة أثار فيها العواطف ، وأبكى فيها أصدقاؤه الفقيده ، وأبان فيها فضله ، وأظهر أعماله الحميدة ، وخلد تاريخه النبيل ، وقد ختم هذه الخطبة بقوله : « ليكن الفقيده لنا في حياته ، ورجاحة عقله ، وميوله وعلومه الجامعة ، وفي شخصيته الكريمة المخلصة ، وفيما سار من علم وشرف مثالا حسناً تقتدى به للوصول إلى غرضنا المشترك ، وغايتنا الوحيدة التي هي ترقية العلوم » .

هذه هي حياة الدكتور رفرز وصفناها لك على وجه الاجمال ، والان نود أن نذكر لك خلاصة آرائه في علم النفس على العموم ، وفي الأحلام على الخصوص ، فنقول :  
إن التجارب العديدة التي قام بها رفرز وآخران (١) قد أثبتت له أن الحساسية الانسانية

[1] H. Head and G. Sherrin.

نوعان : نوع يسمى الحساسية العامة الأولية (١)، وآخر يسمى الحساسية الظاهرية الدقيقة (٢)؛ وقد ظهر له أن موضع الأبول هو طبقات الجلد الباطنية ، بينما أن موضع النانية هو طبقات الجلد الظاهرية ، وإنما سميت الأولى أولية عامة لأنها أبسط وأوفى منزلة في سلم الرق ، يشترك فيها الانسان والحيوانات العليا والدنيا ، وسميت الثانية ظاهرية لأن موضعها طبقات الجلد العليا وتظهر في الحيوانات العليا ولا سيما الانسان؛ هذا إلى أنه من الممكن إدراكها إدراكاً تاماً ، وموضعها وصفاً دقيقاً ، وتحديد موضعها بالضغط ، ومن خواصها : عدم ظهور أثرها عند المرض ، وفي الأحوال غير العادية ، وأثناء عمل بعض العمليات الجراحية .

كان لهذه التجارب آثارها في آراء دفرز في المجموع العصبي والعقل ، فهو يرى أن الرابطة وثيقة بين هذين ، لدرجة أنه من الممكن تفسير أية حادثة نفسية بارجاعها إلى أسباب جثمانية ، وبيان مشابهتها لحادثة جسمية ؛ فالمعقل تابع للمجموع العصبي في تطوره وأحواله على العموم؛ فإذا كمل هذا كمل ذلك، وأى نقص أو خلل في تكوين الأول ينشأ عنه - ولا محالة - نقص أو خلل في أحوال الثاني ؛ وبذلك يظهر ارتباط علم النفس بعلم وظائف الأعضاء تمام الارتباط ، وتوقف سلوك العقل على أحوال المجموع العصبي تمام التوقف .

هذه هي النظرية الأساسية التي بنى عليها دفرز آراءه في العقل ومظاهره .

فالمعقل عنده كالمخ ، والمجموع العصبي يتكون من طبقات ظاهرية عليا؛ وأخرى سفلى ، فالعليا تكونت على مر الأجيال والقرون ، وكانت نتيجة لتطور الانسان ، وتدرجه في سلم الرق ، أما الطبقات السفلى فهي الطبقات الأولية التي توجد في الانسان والحيوان معاً ، وإن كانت تختلف في الحيوانات تعقداً ورقياً باختلاف منزلتها من السلسلة الحيوانية .

والسلوك الانساني بناء على هذه النظرية نوعان: (١) سلوك راق دقيق خاضع للمعكر الراق والروية ، وهو الذي تضبطه طبقات العقل العليا ، ويرتبط بطبقات المخ الظاهرية الدقيقة الحساسية ، (٢) سلوك ساذج ابتدائي ، وهو المتصل بطبقات العقل السفلى الخاضع لتصرفات الطبقات السفلى من الجهاز العصبي .

ويقول دفرز بتطور الفرائز<sup>١</sup> واتقسامها إلى قسمين: أولية وعليا ، أو Protopathic و Epicritic ؛ فالأولية هي التي يكون الغرض منها حفظ الذات والنسل ، كفرائز البحث عن الطعام والخوف والمقاومة والفرية التناسلية ، ومن الفرائز العليا الفرائز الاجتماعية ، وأرقاها غريزة حب الاختلاط ، التي ينشأ فيها نزعات ثلاث هامة هي : التقليد ، والمشاركة الوجدانية،

[1] Protopathic Sensibility.

[2] Epicritic Sensibility.

والاستهواء ؛ فالتقليد يمثل الناحية النزوعية لفرز حـب الاختلاط ، والمشاركة الوجدانية تمثل ناحيتها الوجدانية ، والاستهواء يمثل الناحية الفكرية أو الإدراكية ؛ ويرى الدكتور دفرز أن هذه النزعات الثلاث ضرورية لتقدم النوع الانساني ، وورق العقل البشري من نواحيه الثلاث : الارادية ، والوجدانية ، والإدراكية .

ومن آراء دفرز - التي بذل مجهوداً كبيراً في الدفاع عنها ، والبرهنة على صحتها - أن هناك علاقة متينة ، ورابطة قوية بين طبقات المجموع العصبي العليا من ناحية ، وبين طبقات العقل العليا من ناحية ثانية ، وبين الغرائز الاجتماعية والمواطف من ناحية ثالثة ، وبين السلوك الانساني الراق من ناحية رابعة ؛ فهذه الأربعة مرتبطة تمام الارتباط ، وكل منها يسمى في اصطلاح دفرز Epicitie .

كما أن طبقات المجموع العصبي ، وطبقات العقل السفلى ، والغرائز الدنيا وما يتبعها من وجدانات وانفعالات ، والسلوك الانساني الانبغائى الشهوانى ؛ كل هذه شديدة الاتصال بعضها ببعض ، وتسمى « Protopathe » .

بعد أن يثبت دفرز أن للعقل ناحيتين : عليا ، وسفلى ؛ وبعد أن بين علاقة هاتين الناحيتين بالغرائز ، ويثبت ارتباطهما بالمجموع العصبي ، يتوسع في بحث السلوك الانساني ؛ فيقسمه إلى : راق ، وساذج ؛ فالأول هو الخاضع لذكاء الانسان وغرائزه الاجتماعية المهذبة ، ويتجلى بأجلى مظاهره في الانسان اليقظ المفكر المدبر ، الذى يفكر بعقلية الرجل المهذب ؛ ويخضع غرائزه الذاتية للغرائز الاجتماعية ، ويسعى في إدخال السرور على غيره ، كما يسعى في مرور نفسه .

أما الثانى فهو الخاضع للغرائز الدنيا ، وأظهر ما يكون في الانسان المتوحش أو الأنانى الفارق في لذاته الصبائية ، الساعى في إرضاء شهواته ، والحصول على رغباته بجميع الوسائل الممكنة .

وإن الانسان العاقل ليسلك المسلك الأول - وإن كلفه المشاق ، وجلب عليه المضار - ؛ ولا يسلك المسلك الثانى إلا كل غر ضعيف التفكير ، حقير النفس ؛ أو ضعيف العقل ، أو سبى الفهم ؛ غير أن كثيراً من الناس يسلكون المسلكين ، ويفرقون النجدين ؛ ففي حالة الهدوء العقلى ، والسكون العصبي يسلكون الأول ، وفي الأحوال غير العادية يرجعون إلى الطبيعة الأولى ، ويتقهرون إلى مرتبة السلوك الساذج ، ويسمى هذا في اصطلاح دفرز « السلوك التقهري أو الرجوعى Regressive » ، ويبلغ السلوك التقهري غايته في الأحوال غير العادية - كأنشاء النوم ، أو التنويم المغناطيسى ، وعند الاضطرابات ، والأمراض العصبية .

ومن ذلك يتبين لك أن السلوك الراق خاضع لما يسمى « العقل اليقظ » في اصطلاح علماء النفس التحليلي ، أما السلوك التقهقرى خاضع لما يسمى بـ « العقل الباطن »  
 فالدكتور رفرز يوافق الدكتور سيجمند فرويد وأتباعه على وجود ناحيتين للعقل : إحداهما ظاهرة يقظة ، والثانية باطنة في حالة خمود أو سكون ، إلا أن هذين العالمين يختلفان في أمور ، منها :

أولاً — أن رفرز يتوسع في محتويات العقل الباطن ، فلا يقصرها على التجارب التي كانت من نصيب المرء في عهد طفولته ، بل يدخل فيها جميع التجارب والذكريات التي تنتقل من الشعور إلى اللاشعور — إما بنفسها وإما بكتبتها — قسداً ، وذلك حيث يقول : « إن هذا العصر ( أى عصر الطقولة ) صالح — بصفة خاصة — لأن يهيئ الفرص لتجارب الشعورية فتسير لاشعورية ، ولكن انتقال التجارب إلى عالم اللاشعور قد يحصل في أى عصر من عصور الحياة الفردية ، وقد لفت الأنظار — إلى حد بعيد — حدوث هذه الظاهرة على أثر تجارب الحرب العظمى وفتاؤها ... فقد شوهد — في كثير من الأحوال — أن الجنود قد نسوا — تمام النسيان — حياتهم التي حيوها من قبيل الاصابة بانغماء شديد ، أو جهد عميق ، إلى أن وجدوا أنفسهم في المستشفيات بعد الاصابة ببضعة أسابيع ، هذا مع أنهم كانوا أثناء جزء من هذه المدة — على الأقل — في حالة شعور عادي على حسب الظاهر ، وأن ما حدث لهم أثناء هذه المدة قد يبقى مدفوناً في عالم اللاشعور ، بحجوباً عن عالم الشعور — شعوراً بل سنين متوالية — بحيث لا يمكن تذكر شيء منه إلا باحدى طرق التحليل النفسى ، كالتنويم المغناطيسى ، وتداعى المعانى المطلق (١) .

ثانياً — لا يشبه رفرز اللاشعور — كما يفعل فرويد وأتباعه — بحجرة أو صندوق يفصله عن الشعور فاصل ، له باب عليه رقيب (٢) ، يمنع محتويات اللاشعور من الدخول إلى حظيرة الشعور إلا إذا احتمات عليه ، وتزيت بغير أزيائها الحقيقية ، ولكنه يقول : إن للعقل طبقات ظاهرية عليا دقيقة ، وأخرى باطنية سفلى ساذجة — كما سبق شرحه — ، فالأولى هي التي تعمل وتظهر آثارها في الأحوال العادية وقت اليقظة ، فإذا بطل عملها ، أو حيل بينها وبين وظائفها لسبب من الأسباب — كالأضطراب العصبى ، والنوم ، والتنويم المغناطيسى — حلت محلها الطبقات السفلى ، ويكون سلوك الانسان في هذه الحالة خاضعاً لظاهرة خاصة تسمى التقهقر أو الرجوع « Regression » ؛ يريد بذلك الرجوع إلى الحياة الأولية البسيطة ؛ فتظهر التجارب الساذجة التي صادفها الفرد أو النوع في حياته الماضية .

[1] See Instinct and The Unconscious P.P. 13-14. [2] Sensor.

ثالثاً — أن رفرز لا يعنى بالفرزة الجنسية عناية فرويد وأتباعه بها ، فلا يقول كما يقول هؤلاء : إن الرغبات المكبوتة التي تظهر في الأحلام ، والتي ينشأ عنها الأمراض العصبية والاضطراب العقلي هي ميول جنسية في الغالب ، ولكنه يقول : إن أية تجربة مؤلمة — أيا كان نوعها — صالحة لأن تنتقل من الشعور إلى اللاشعور ، وتكون سبباً في حلم أو مرض عصبي ، وفي هذا يقول — مشيراً إلى التجارب التي قام بها ، والحوادث التي شاهدها وهو يعالج بعض المصابين بأمراض عصبية أثناء الحرب العظمى — :

« فلدينا الآن من الأدلة العديدة ما يبرهن على أنواع الشلل ، واقتباس العضلات ، والخوف والذعر ، وغيرها من الأمراض التي كان ينسبها فرويد وأتباعه نتائج ميول جنسية مكبوتة ، تحدث كثيراً لأشخاص يظهر أن حياتهم الجنسية عادية ليس فيها شذوذ مطلقاً ، وأنهم لم يكونوا بحالة غير عادية عرضة للهموم الجنسية التي نراها شائعة في عصر الحضارة الحديثة ، وعلى الأخص بين طبقات المجتمع التي تتمتع بقسط أوفر من الراحة » .

ثم يقول بعد ذلك : « إذا نسى لنا أن نهتدى بهدى النتائج التي شاهدناها ، فن الحق أن تقول : إن مظاهر بعض الأمراض السالفة الذكر وأعراضها ، تذهب وتختفي آثارها بدون تعرض لنقل عقده وجدانات ، أو وجدانات جنسية من اللاشعور إلى الشعور ، بينما أن أمراضاً أخرى من النوع نفسه تبقى ولا تزول آثارها على الرغم من الوصول إلى أعماق نفس المريض ، والعنور على عقده رغبات جنسية وغير جنسية مكبوتة ، يرجع عهدها إلى ما قبل الحرب » (١) .

يريد رفرز بذلك أن يبرهن على أن كثيراً من الأمراض العصبية التي أصيب بها الجنود أثناء الحرب العظمى يرجع في الغالب إلى كتم أسكار ووجدانات مؤلمة ، نشأت عن التجارب القاسية التي صادفها هؤلاء الجنود أثناء الحرب العظمى وأحوالها . وما لازمها من هياج واضطراب ومواقف خطيرة ؛ إذ كانوا يسمون قصف المدافع ورعدها من حين لآخر ، ويرون اتجار القنابل وتيران القذائف على مقربة منهم ، ويشاهدون بأعينهم إخوانهم والموت يحصد حصداً فلا يبقى منهم ولا يذر ، وقد كان أعداؤهم يباشنونهم وهم في خنادقهم فيقتلون فيها طويلاً بدون أكل ولا شرب ولا ضوء ، ولا سبيل إلى الاتصال بأقربائهم وقوادحهم . هذه التجارب القاسية التي وقعت لهؤلاء الجنود في الماضي القريب — لا تجاربهم في الماضي البعيد أيام العقولة ، ولا وجداناتهم الجنسية المكبوتة — هي المسئولة في نظر رفرز عن الأمراض العصبية وما يتبعها من الأمراض الجسمية التي أصابت هؤلاء الجنود ، والتي كانت

[1] See Instinet and The Unconscious P.P. 165-166.

سبباً في كثير من الأحلام المزعجة التي كانوا يرونها وهم نائمون .

رابعاً - أن رفرز لا يقصر وظليفة الأحلام على تحقيق الرغبات المكبوتة بطريقة رمزية ، ولكنه يقول إن كثيراً من الأحلام يخضع للظاهرة السابقة - ظاهرة التحقير - التي تخضع لها جميع الأحوال العقلية الشاذة تقريباً ؛ فالأحلام التي يعتبرها فرويد وأتباعه رموزاً لرغبات مكبوتة تعد في رأى رفرز تجارب من النوع الذي يحصل للانسان في عهد طفولته ، أيام أن كانت أفكاره أشبه شيء بالأوهام البسيطة الساذجة ، أو من النوع الذي حصل للانسان الأول ، أو لأبائه وأجداده في أطوار حياتهم الأولى ؛ فإذا رأى الانسان في نومه أنه يطير ، أو أن شجرة تتحرك نحوه ، أو أن نمباتاً يهاجمه ؛ فهذه الأحلام وما أشبهها ذكريات عن العصر الماضى عادت للانسان كما هي أو بتعديل بسيط أساسه امتزاج العناصر والحوادث بعضها ببعض امتزاجاً ناشئاً عن عدم التمييز أو تقصه أو تداعى المعانى ، وهذه - كما ترى - من خصائص التفكير عند الأطفال والانسان المتوحش ، وهالك ما قاله رفرز في هذا الصدد :

« وهناك من الأسباب الكثيرة ما يحملنا على الاعتقاد بأن الأحلام تمثل تجارب الطفولة الأولى ، وليس معنى ذلك أن موضوعات الأحلام مأخوذة من تجارب الطفولة الأولى ، ولكن معناه - على الأحرى - أن أية تجربة يحلم بها الانسان تتشكل بحيث يكون ما فيها من وجدانات ، أو إدراكات ، أو نزعات ، أو أعمال أشبه شيء بوجدانات الطفولة وإدراكاتها وزعانها ؛ وتظهر الأحلام بهذه الصفة في دائرة الشعور يرجع بالطبع إلى زوال رقابة الطبقات العليا العقلية أو ضعفها أثناء النوم ، حينئذ تظهر الطبقات السفلى إلى الطبقات العليا ، فيتسنى لها أن تظهر بمظهرها الطبيعي ( الملائم لعصر الطفولة الفردية أو النوعية ) ؛ فأوهام الأحلام وخيالاتها وخروجها عن قوانين المنطق ليست ناشئة عن تحول الرغبات المكبوتة بتلك الطريقة المنظمة التي يصفها فرويد ويمزوها إلى تداخل كائن شيطاني ( الرقيب ) ، وإنما هي - على الأحرى - نتيجة مباشرة لنشاط أنواع أخرى من أنواع السلوك العقلي كانت تتممها من الظهور الطبقات العنقاية العليا ، أو التجارب التي حصل عليها الانسان في أدوار حياته اللاحقة لدور الطفولة » (١) .

هذا هو رأى رفرز في الأحلام لحصناه لك ، وهو يقرب من رأى يونج (٢) العالم

السويسرى الشهير الذي سنحدثك عنه في عدد آخر إن شاء الله تعالى .

حامد عبد القادر

[1] See Instinet and The Unconscious P.P. 230-1.

[2] Dr. C. G. Jung. See McDougall's An Outline of Abnormal Psychology P.P.188f